ظاهرة التقابل في علم الدلالة

الدكتور احمد نصيف الجنابي
كلية الاداب — الجامعة المستنصرية



« المدخل »

(١)

بعد قراءة في كتب الدلالة العربية القديمة والحديثة ، لم أجد أحداً بحث « ظاهرة التقابل» في أي كتاب من الكتب الدلالية . وأستطيع أن أقول مطمئناً : إن مصطلح التقابل الدلالي هو من وضعي وهذا أمر متصل بالارل ؛ « وقد استرشدت بكتب البلاغة والمنطق فاستقرّ رأيي على مصطلح « التقابل » « بزنة» « الترادف » ؛ والاخير بحثه الدلاليون العرب القدامى والمحدثون .

(٢)

غير أن الأمانة العلمية تحتّم عليّ أن أشير إلى أن نفراً من الدلاليين المعاصرين الغربيين قد بحثوه بشكل من الأشكال ، يتفق ومعطيات لغتهم . وقد استفدت من هذه الكتب بقدر مايتصل ذلك بموضوعي وشواهدي ولغتي ، ولاشك في أن لكل لغة خصائصها وميزاتها التي لاتتفق مع اللغات الأجنبية الا في خطوط عامة ... أما التفاصيل فهي مختلفة . وقد اشرت إلى تلك المراجع في مواضعها من البحث .

(٣)

وبعد ... فهذه وجهة نظر أقدمها بين يدي أهل العلم الراسخين في علم الدلالة لأنهل من معين خبرتهم واستفيد منها في اغناء البحث .

والحمدُ لله في الأولى والآخرة .

وهو حسبي ونعم الوكيل ...



ماذا تعني هذه الظاهرة ؟

تعني هذه الظاهرة وجود لفظتين تحمل كل منهما عكس المعنى الذي تحمله الأخرى ؛ مثل : الخير والشرّ والنور والظلمة ، والحبّ والكراهية ، والكبير والصغير وفوق وتحت ، ويأخذ ويعطي ، ويضحك ويبكي ...

وأطلق على هذه الظاهرة في اللغة الإنجليزية
مصطلح ANTONYMY

وقد عرفه « المعجم العالمي الموسوعي» (١٩٧٦م) بأنه يعني كل كلمتين تحمل احداهما عكس المعنى الذي تحمله الاخرى (١).

وكذلك فعل (بالمر) ، في كتابه .(٢) : علم الدلالة (١٩٧٧م) .وأشار اليه هذا التعريف جون لاينز ، باختصار (٣) في كتابه : علم الدلالة (١٩٨٨م) .

وأصل هذا المصطلح أغريقيّ ، وهو مكون من مقطعين ، هما : (٤)

(١) ANT ويعني (ضدّ اوعكس) .

(٢) NYMA ويعني (اسم) .

وأعتقد أن ظاهرة التقابل واحدة من مجموعة ظواهر تشكل مايسمّى في علم الدلالة المعاصر :

العلاقات الدلالية (Semantic Relations)

او علاقات المعنى (٥) (Sense Relations)

وقد تسمى ظاهرتنا بالتضاد ، وتسمى في الفلسفة والمنطق بظاهرة التناقض . والتناقض من المصطلحات الأساسية في فلسفة هيكل HEGEL (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) .

أما في البلاغة العربية فيطلقون عليها اسم الطباق - غالباً - والمقابلة - أحياناً - وان كان بعض البلاغيين يفرق بين الطباق والمقابلة .

---

(١) Encyclopedic world Dictionary, p.102
(٢) F. R.PALMER: Semantics, p. 79
(٣) J. Lyons: Semantics, Vol. I, p. 271
(٤) Encyclopeolic ... p. 102
(٥) PALMER, ibid. p. 59, Lyons, ibid I, p. 270

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فأبو هلال العسكري يفرق بين المقابلة والمطابقة وبحث كل ظاهرة في فصل مستقل. وعرف المقابلة بقوله : هي ايراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى على جهة الموافقة او المخالفة .(١) ومن أمثلة الموافقة قوله تعالى : (نَسُوا الله فنسيهم) (٢). ومن أمثلة المخالفة قوله تعالى : (لقد جاء الحق وزهق الباطل) (٣) .

وعرف المطابقة بقوله : (قد أجمع الناس على أنّ المطابقة في الكلام هي : الجمع بين وضدّه في جزء من أجزاء الرسالة او الخطبة او بيت من بيوت القصيدة ، مثل السواد والبياض ، والليل والنهار ، والحرّ والبرد). (٤)ومن الأمثلة التي اوردها:قوله تعالى :« يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحيّ » . (٥) وقوله تعالى : (فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات) (٦) .

والاخيرة تشكل ظاهرة أخرى هي التي سماها الدلاليون ظاهرة الاضداد ... وان اختلطت عندهم بما أسميناه التقابل .

وجعل ابن أبي الاصبع (ت ٦٥٤هـ) المقابلة داخلة في مفهوم طباق الايجاب (٧) !!

وهكذا يبدو اضطراب اللغويين العرب القدامى في تحديد مصطلح المقابلة ...

والمحدثون (او فريق من الذين تعرضوا لموضوع المقابلة والطباق)، جعل قسم منهم الطباق والتقابل ظاهرة واحدة (٨) !! أو هكذا استنتجت ...

وهو أمر ليس كذلك اذا أردنا الدقة ، لأننا نعرف أن ظاهرة التقابل تعني وجود لفظتين تحمل احداهما عكس معنى الأخرى ، وهذه السمة لاتتحقق في الطباق البلاغيّ ولاسيما طباق السلب .

---

(١) كتاب الصناعتين /٣٤٩ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٩٧ .

(٣) سورة الاسراء ، الآية ٨١ .

(٤) كتاب الصناعتين /٣١٩ .

(٥) سورة الروم ، الآية ١٩ .

(٦) سورة الفرقان ، الآية ٧٠ .

(٧) تحرير التحبير /١١٢ .

(٨) الدكتور محمد حسين آل ياسين في كتابه : الأضداد في اللغة /٢١٦ والدكتور عبده بدوي في كتابه : ابو تمام وقضية التجديد في الشعر /١٨٤ ، والدكتور عبد الكريم اليافي ، في كتابه جدلية أبي تمام /٢٢ وما بعدها .

وسبب رفضنا الأخذ برأي هؤلاء الباحثين أنّ « طباق السلب» (الذي يعني اللفظة ونفيها) ، لايولّد في أغلب الأحيان مانريده بمصطلح التقابل .

فعندما نقول : هذه الفتاة جميلة ، وتلك الفتاة غير جميلة ؛ فانّ لفظة (جميلة) لاتقابل (غير جميلة) ، ولكنّ الذي يقابل (جميلة) هي (قبيحة) .

واذا قلتُ : أُحبُّ سلوى ولا أُحبُّ سلمى ، فانّ الفعل (أُحبّ) لايقابل الفعل المنفيّ (لا أُحبّ) ، لأن الذي يقابل (أحبّ) هو (اكره) .

واذا قلت : أَعلمُ أنّ الله على كل شيء قدير ، وقلت : لاأعلمُ أيّانَ يومُ القيامة ؛ فان الفعل (أعلم) لايقابل الفعل المنفيّ (لاأعلم) ، لان الذي يقابل الفعل اعلم هو الفعل (أجهلُ) . كما أن الذي (لايعلم) قد يَعْرِفُ فلا يجوز أن يوصف بالجهل ، بدليل قوله تعالى : « ولكنّ أكثرَ الناس لايعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة غافلون » ؟؟ (١) . ولو كان (لايعلمون) يعني أنهم جاهلون لما قالت الاية بعد ذلك (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) .

أما الفعل (يستخفُون) في الاية الكريمة: (يستخفون من الناس ولايستخفُون من الله وهو معهم ...) (٢) ، فانه يقابل الفعل المنفّي (لايستخفون).

والذي نخلص اليه من هذا كله أنّ ما سمّي بالطباق —ولاسيما طباق السلب— لا يدخل في مفهوم المقابلة لانه لايفيدها الا نادراً ، أما في أغلب الأحيان فانه وإياها لمختلفان .

ويبدو أن ظاهرة التقابل لاتقتصر على وجودها في اللغة . بل هي سمة من سمات الفكر ، وسمة من سمات الكون ، وسمة من سمات الخلق ، ولاسيما خلق الانسان .

فليس في مظاهر الكون شيء عالٍ إلاّ ويقابله شيء منخفض .

وليس هناك جانبٌ صغير الا ويقفز في الذهن — عند ذكر او تذكره — شيءٌ كبير.

وليس في الكون شيءٌ بعيد إلاّ ويقابله شيء قريب . وليس في الكون شيءٌ مضيء إلاّ ويقابله شيء مظلم بسبب دورة الارض حول الشمس . وربنا العظيم يقول :
(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ...) (٣) .

---

(١) سورة الروم ، الآية ٧ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٨ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية ١٢ .

وليس في الكون شيءٌ خشن إلا ويقابله شيء ناعم وما تراه قريبَ المنال قد يراه غيرك بعيد المنال .

وقد قال المتنبي فأحسن :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظُمُ في عين الصغير صغارُها وتصغرُ في عين العظيم العظائمُ

واذا مانظرنا إلى جسم الإنسان وجدنا ظاهرة التقابل واضحة فيه فاليد اليمنى تقابل اليد اليسرى والعين اليمنى تقابلها اليسرى ، والجسم أعلاه الرأس واسفله القدمان ... وهكذا البقية .

وفي النفس الأنسانية خطوط متقابلة ؛ ففيها نوازع الخير ، وفيها نوازع الشرّ . وقد فاز من ربى جانب الخير ورعاه وكبح جانب الشرّ ودحره . قال تعالى :

« ونفسٍ وماسوّاها . فألهمها فُجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاها . وقد خاب من دسّاها » . (١)

وفي النفس الانسانية نزوع فطريّ إلى الايمان ، وإلى هذا أشار الحديث النبوي الصحيح (كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة) .

وفيها ميلٌ إلى الانفلات من ضوابط الايمان ولهذا فتح الربُّ الرحمن الرحيم بابَ الرحمة على مصراعيه ، ليتوب مسيءُ الليل ومسيء النهار ، لأنه خالقُ الانسان ويعلم سرّه ونجواه ويعلم حقيقته . قال تعالى : « فمنْ شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ » (٢) . وما ذلك إلاّ لوجود الاستعداد عند الانسان لسلوك احدى السبيلين .

وفي النفس نزوع إلى الإقدام وفيها نزوع إلى الاحجام ، والانسان تتجاذبه هذه النوازع فمرّة يميل مع هذه ، ومرة مع تلك . قال الحُصين بن الحمام المُرّيّ :

تأخّرتُ أستبقي الحياةَ فلم أجد لنفسي حياةً مثلَ أنْ أتقدّما

وبعض النفوس تُغَلِّبُ جانب الشرّ فتصرّ على الأذى والعدوان وتأبى الصلح ... فلا بُدَّ أنْ ترضى او تخضع للحرب ، وفي هذا الجانب يأتي قول زهير بن أبي سلمى(٣) :

---

(١) سورة الشمس ، الآيات : ٨—١٠ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٢٩ .
(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، المنسوب لثعلب / ٣١ .

وَمَنْ يَعْصِ أَطرافَ الزِّجاج فإنه يُطيعُ العوالي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَم

يقول : «مَنْ أبى الصُّلْحَ – وكَنّى عنه بالزُّجِّ – أطاع العوالي ، وهي التي يطعن بها » (١) . وأنشدوا قول كثير عزّة :

رميتُ بأطرافِ الزِّجاجِ فلم يُفِقْ عن الجهلِ حتى حلّمتْهُ نصالُها

وفي النفوس من يقدّر الاكرام ويُجلّ الكرام ، ويزيد في الاحسان إحساناً .

وفي النفوس من يسيء . إلى من يُحسنُ اليه .

وعن هذا التقابل عبّر المتنبي بقوله :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

لذلك يرى المتنبي أن المعادلة الصحيحة في التعامل أن نضع كل شيء في موضعه ، فنكرم من يقدّر الكرم ، ونهين أصحابَ النفوس اللئيمة بعدم اكرامهم :

ووضعُ الندى في موضع السيف بالعُلى مُضِرٌ ، كوضع السيف في موضع الندى

كل هذه المواقف والاوامر تتضمن علاقات دلالية ... وكل هذه العلاقات تعبر عنها اللغة باعتبارها وعاءً للفكر الانساني .

وقد حفل الشعر العربي بأمثلة حيّة تعبر عن الجوانب النفسية من هذه العلاقات ، لأن الشعر هو عالم النفس والشعور .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وفي ميدان التحليل الدقيق للتراكيب الدلالية في الشعر فطن عبدالقاهر الجرجاني (المتوفى ٤٧١هـ) ، إلى أنّ لمبدأ الجمع بين الأشياء المتباعدة (في عالم التقابل الدلاليّ) صلةً حميمة بالنواحي الجمالية في الشعر العربي . ورأى ان (التشبيه) يقوم بمهمة الجمع بين الاشتات وتوليد الاوامر بين المتنافرات ، وأنك « اذا استقريت التشبيهات وجدتَ التباعُدَ بين الشيئين كلما كان أشدّ كانت إلى النفوس أعجبَ ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها الى ان تحدث الاريحية أقرب ، وذلك ان موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح والمتألف للنافر من المسرّة ، والمؤلف لاطراف البهجة انك ترى بين الشيئين مثلين متباينين ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ... » (٢)

(١) نفسه /٣١ : (قال خالد بن كلثوم : كانوا يستقبلون العدو اذا به استقبلوهم وأرادوا الصلح ، وإلا قلبوا عليهم الأسنة وقاتلوهم) .

(٢) دلائل الاعجاز/١٤٦

وخلص – عبدالقاهر – من تحليل مجموعة كبيرة من الأبيات التي تتضمّن تشبيهات، إلى أنّ التشبيه « يعمل عملَ السّحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بُعْدَ مابين المشرق والمغرب ، ويريك التئام الاضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعتين ، والماء والنار مجتمعتين ... » (١) .

وهي ملاحظة ذكية متوقعة من صاحب « نظرية النظم » التي تعدّ سبقاً للزمن ، اذ بسط فيها عبدالقاهر نظرية « في التراكيب النحوية» ، متكاملة ، سبق فيها كتاب « التراكيب النحوية» Syntachic Stnutwes لجومسكي (N.Chomsky) ، الذي نشر لاول مرة سنة ١٩٥٧ . فيكون عبدالقاهر سابقاً لهذا اللغوي بما يقرب من ٩٥٠ سنة !!

والتعقيب الوحيد على رأي عبدالقادر في علاقة التشبيه بالتقابل هو أنه ليس كل تشبيه يجمع بين الاضداد، وليس كل تشبيه يجمع بين المشرّق والمغرَّب من الأشياء .

فقسم من التشبيهات يتحقق فيه مارآه عبدالقاهر ، والقسم الاخر لايتحقق فيه هذا الذي لاحظه . وآية ذلك أن كتاب « التشبيهات» (لابن أبي عون) ، وهو مطبوع معروف ، ومافيه من أشعار تتضمن ظاهرة التقابل يؤيد ماذهبنا اليه ، لأن قسماً من هذا التشبيهات لايتحقق فيه هذا الذي رآه عبدالقاهر ، على الرغم مما فيها من تشبيهات ...

واذا تتبعنا أنواع التقابل – من وجهة النظر الدلالية – فسنجد أنها تؤلف مجموعة من العلاقات .

فالخير والشرّ . يمثلان علاقة تقابُل من وجهة النظر الدلالية، ويمثلان آصرة إنسانية من وجهة النظر الأجتماعية (*)

والتقابل بين الحبّ والكره يمثّل علاقة دلالية ، ويمثل آصرة انسانية .

والتقابل بين الجمال والقبح يمثل علاقة دلالية ، ويمثل آصرة جمالية.

والتقابل بين التفاؤل والتشاؤم يمثل علاقة دلالية ، ويمثل – من جانب آخر– آصرة نفسية .

والتقابل بين الحياة والموت يمثل علاقة دلالية، ويمثل – من جانب آخر– آصرة وجودية .

---

(١) نفسه/١٤٧

(*) للتمييز بين العلاقات الدلالية وغيرها من العلاقات، جعلت العلاقة للدلالة، والآصرة لغيرها.

والتقابل بين الحركة والسكون يمثل علاقة دلالية ، ويمثل — من جانب آخر — آصرة كونية .

والتقابل بين النظام والفوضى يمثل علاقة دلالية ، ويمثل — من جانب آخر — آصرة ذهنية .

والتقابل بين الايجاب والسلب يمثل علاقة دلالية، ويمثل — من جانب آخر — صلة ذهنية (وقد يمثلان آصرة توازن ، كما في الذرة) .

والتقابل بين التطور والثبات يمثل علاقة دلالية ويمثل — أيضاً — آصرة كونية وحيوية وأجتماعية .

والتقابل بين القلة والكثرة يمثل علاقة دلالية ويمثل — أيضاً — آصرة حيوية .

والتقابل بين الذكورة والأنوثة يمثل علاقة دلالية ، ويمثل آصرة حيوية وجنسية .

والتقابُل بين الزواج والعزوبة يمثل علاقة دلالية ، ويمثل آصرة اجتماعية .

والتقابُل بين القُرْبِ والبُعْدِ يمثل علاقة دلالية ، ويمثل آصرة مسافة أيضاً.

والتقابُل بين العالي والواطي يمثل علاقة دلالية ، ويمثل — من جانب آخر — علاقة مسافة .

والتقابُل بين الطول والقصر يمثل علاقة دلالية ، ويمثل — من جانب آخر — علاقة مسافة .

والتقابُل بين الحرية والعبودية يمثل علاقة دلالية ، ويمثل — من جانب آخر — آصرة سياسية .

والتقابُل بين الايمان والكفر يمثل علاقة دلالية ، ويمثل من جانب آخر — آصرة ايمانية .

والتقابل بين الهدى والضلال يمثل علاقة دلالية ، ويمثل — من جانب آخر — آصرة ايمانية .

ويظهر أنّ التقابُل سمة من سمات الأشياء المادية والمعنوية ، والمحسوسة وغير المحسوسة . وهو ظاهرة كامنة في حقيقة الأشياء وبارزة على سطوحها . وهذه الظاهرة من سمات الكون والحياة والانسان : نفسه وجسمه وعقله ، كما أنها سمة دلالية من سمات اللغة

المتصلة بالفكر ، فلا غرابة — بعد ذلك — أن يدركها العقل الانساني بسهولة او بصعوبة ، حسب اختلاف المدارك ...

واذا كان « هيجل» HEGEl — الفيلسوف الألماني — من ۱۷۷۰ — ۱۸۳۱ م ، قد جاء فيما بعد — بمبدأ (التناقض): "Widerspruch" فانه لم يأت بمبدأ جديد وهذا المبدأ يمكن رده إلى الطريق ذي الخطوات الثلاث التي هي : الموضوع ، ونقيض الموضوع ثم التأليف بينهما .

ويرى هذا الفيلسوف أن الكون أجمع يمكن تفسيره ومنهجه بسلسلة متضافرة كل جزء منها له ثلاثة حدود ، حيث ينبت الفكر (أولا) : فكرة هي الاثبات ، ثم يقابلها بالنفي ، ثم ينفي النفي .

ويسمي الفلاسفة المحدثون الاثبات أطروحة ، والنفيَ الأول طباقاً ، ونفيَ النفي تركيباً .

واكثرها تجريداً الوجود (او الكينونة) ، وهي تستدعي بالضرورة نقيضها (وهو اللاوجود) ، لأنَّ كلاً من الحدين لايفهم الا مع الآخر .

وبين الوجود واللاوجود تناقض نتجاوزه بتركيبهما معاً ، والانتهاء إلى فكرة التبدل أو الصيرورة (۱) .

هذه ثلاثة حدود ننتقل منها إلى ثلاثة حدود أخرى ، وهكذا ودواليك ...

* * * * * *

أنماط التقابل وعلاقتها بمبدأ التفسير

يمكن تقسيم التراكيب اللغوية (من حيث الوضوح وعدمه) قسمين :

القسم الأول : واضحة الدلالة يستوي في فهمها اوسط الناس فهماً واذكاهم .

القسم الآخر : مايحتاج إلى اعمال الفكر ولايفهم الا ببذل جهد غير عادي ، وبهذا يتميز أذكياء الناس وعلماؤهم ، وصدق الله العظيم : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون انما يتذكر أولو الألباب) (۲) .

---

(۱) جدلية أبي تمام/١٦

(۲) سورة الزمر ، الآية ۹

ومن أمثلة القسم الأول قوله تعالى : (قل : اللهم مالكَ الملك تؤتي الملكَ من تشاءُ وتَنْزعُ الملك ممّن تشاء ، وتُعزّ من تشاء ، وتُذِل مَنْ تشاءُ بيدكَ الخيرُ إنّكَ على كلّ شيءٍ قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحيّ من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ ، وترزق من تشاء بغير حساب (١) » . وفي سعة علم الله بكل مايستكنّ في النفس يقول عزّ منْ قائل : (قل : إنْ تُخفُوا ما في صدوركم أو تبدوه يَعْلمهُ اللهُ ، ويعلَمُ مافي السموات ِ ومافي الارض ، والله على كلّ شيء قدير) (٢) .

ويقول عزّ وجلّ : (ألم تر أنّ الله يعلمُ مافي السموات وما في الارض ، مايكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعُهُم ،ولاخمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا اكثر إلا هو معهم اين ماكانوا (٣) » .

ومن أمثلته الشعرية قول أبي صخر الهذليّ :

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أمره الامر
لقد تركتني أحسدُ الوحشَ أنْ أرى ... خليلين منها لايَرُوعهُما الذُعرُ

وقول البحتري في وصف البركة :

اذا علتها الصّبا أبدتْ لها حُبكاً ... مثل الجواشن مصقولاً حواشيها
فحاجبُ الشمس أحياناً يضاحكها ... وريّق الغيث أحياناً يباكيها

وقول أبي تمام في بائيته التي قالها في فتح عمورية :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حدّهِ الحدُّ بين الجدّ واللعبِ
بيضُ الصفائح لاسودُ الصحائف في ... متونهنّ جلاءُ الشكّ والريَبِ

لقد برزت – كما لاحظ (الدكتور عبدالكريم اليافي في مقدمة هذه القصيدة ظاهرة التقابل (التي سماها التضاد) ، فالجدّ يقابله اللعب والبياض يقابله السواد والشكّ يبدده الجلاء وأسنّة الرماح تقابل في لمعانها الآتي باليقين هنا النجوم التي ترمي بالظنون. وقد لوح بها المنجمون ليصدوا المعتصم عن التوجه للمعركة (٤)

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦

(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٩

(٣) سورة المجادلة، الآية ٧

(٤) جدلية أبي تمام/٤٦

والنمط الآخر من العلاقات الدلية جاء في تراكيب لاتفهم الا بعد اعمال الفكر ، الذي يختلف فيه الناس وتتباين المدارك ، وبذلك يتفاضل العارفون .

ومن ذلك النمط العلاقة الدلالية التي جاءت في (الآية ١٧ من سورة الرعد) ، وهي قوله تعالى :

« فاما الزَّبَدُ فيذهب جفاءً واما ماينفع الناس فيمكث في الأرض » .

(أ) فما العلاقة الدلية المقصودة في هذه الآية الكريمة ؟

(ب) وما العلاقة (في الآية ١٧٩ من سورة البقرة) ، وهي قوله تعالى :

« ولكم في القصاص حياةٌ ياأولي الألباب »

(ج) وما العلاقة الدلالية (في الآية ١٠٠ من سورة المائدة) :

« لايستوي الخبيث والطيِّبُ ، ولو أعجبك كثْرةُ الخبيث » .

اعتقد أن لمبدأ التقابل أهميته الدلالية التي يعتمد عليها في التفسير الدلالي لمثل هذه الآيات ،

فمبدأ التقابل في الآية الاولى يمكن أن تفسر أدلالياً بأن كل شيء في الوجود يبقى ويقاوم عوامل الفناء ، اذا كان مفيداً نافعاً ، قد يبقى عينه ، وقد يبقى معناه ، وقد يبقى أثره ، وقد يبقى ذكره « والذكر للانسان عمرٌ ثان » ، وان كل شيء فاسد او مضر يزول ولو بقي الى حين . وقد قيل : دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق الى قيام الساعة .

أما الآية الثانية فليس فيها (في الظاهر) علاقة تقابل ، ولكن الحقيقة انها تتضمن علاقة تقابل ، ففي قتل القاتل المتعمد حياة لبقية الناس ، لأن في العقاب ردعاً للنفس الشريرة .
ومن أمن العقوبة اساء الأدب !!

أما الاية الثالثة : «قل : لا يستوي الخبيثُ والطيّب ... الخ» فيمكن توضيح علاقتها الدلالية اعتماداً على مبدأ التقابل ...

الاية من الانخداع بالمظاهر البراقة التي تصاحب الاشياء في الكثرة والقلة ، فيرى بعض المحجوبين أن الكثرة أفضل دائماً من القلة ، دون نظر إلى النوعية ... فيحكمون على الخبيث الكثير العدد بأنه أفضل من القليل العدد ، ولو كان الاخير أحسن وأجود ، وأفضل .. وما علم هؤلاء المخدوعون بالمظاهر أن حقائق الأشياء تكمن في نوعيتها لا في كميتها وانّ نفائسَ الاشياء أقلّها وجوداً ، وأقلّها عدداً ... فما أقلَّ الرسلَ إن قيسوا بالناس عدداً ؟!

وما أقلَّ الذهبَ اذا قيس ببقية المعادن الرخيصة وجوداً ؟! وهل علم هؤلاء أن اللؤلؤ الذي في الاعماق قليل وانَّ الحصى الذي بجانبه على الشاطىء كثير جداً ؟!

واعتماداً على مبدأ التقابُل يمكن أن نفسِّرَ تراكيب نحوية عديدة يصعب تحديد دلالتها من النظرة الظاهرة.

واستناداً إلى مبدأ التقابل يمكن تفسير النصوص التي حدث فيها حذف (السبب من الاسباب المعروفة عند النحاة والبلاغيين) .

فقول المتنبي :

أتى الزمانَ بنوهُ في شبيبته ... فسَرَّهُمْ وأتيناهُ على الهرَم

يمكن تفسيره اعتماداً على هذا المبدأ. وتقدير الكلام:

أتى الناسُ الزمان في اوله فنالوا منه ما أرادوا، واتيناه في وقت هرمه وقد حلب الناس ضرعه فلم ننل منه ما نريد، فساءنا هذا ....

واستناداً إلى مبدأ التقابل يمكن تفسير الدلالات التي استعملت استعمالاً مجازياً، كما في قول الشاعر :

من لم تفده عبَراً أيامُه ... كان العَمَى أولى به من الهدى

استعمل الشاعر لفظة (العمى) في سياق البيت استعمالاً مجازياً، فدلتْ على (الضَلال)، الذي يقابل الهُدى. وتشفع لهذا التفسير الاية الكريمة : «وما أنت بهادي العُمْي عن ضلالتهم». فالعَمَى — هنا — يعني الضلال لجامع عدم الاهتداء إلى الصراط السويّ بينهما !!

هذا التفسير يصح اذا كان التقابل بين لفظين يخلو كل منهما من الدرجات الدلالية : كالخير والشرّ، والشمال والجنوب، والذكر والانثى ....

أما اذا كان التقابل بين لفظين تحت كل منهما درجات من العلاقات الدلالية فان المقابلة لا تصح الا مع القمم أي : مع اللفظين دون درجات العلاقات الدلالية تحتهما، وكذلك اذا كان أحد اللفظين يتضمن درجات من العلاقات الدلالية .... وكذلك اذا كانت درجات العلاقات الدلالية تحت اللفظ الأول مختلف عن درجات اللفظ الآخر ....

كما سيتضح في «المبحث الآتي:

درجات العلاقات الدلالية

لو أخذنا مجاميع من الالفاظ المتقابلة لوجدنا أن التقابل يمكن أن يؤدي عمله كاملاً في التفسير الدلالي في حالة وجود تقابل كلّي بين اللفظين المتقابلين؛ كالاول والآخر، والظاهر والباطن، والايمان والكفر، والحرية والعبودية، والذكر والانثى ....

أما في حالة وجود تقابل جزئي او غير متكامل بين اللفظين فانّ المقابلة تكون صعبة.

ومن أمثلة التقابل الجزئيّ : الجمال والقبح .

فالجمال نسبيّ. والقبحُ كذلك. ولذلك تختلف مقاييس الجمال من أُمّة إلى أمة. ومن شَعْب إلى شعْب. وقد تختلف المقاييس بين أبناء الامة الواحدة؛ فما أراه جميلاً قد لا يراه غيري كذلك. وقد دخلت (بُثينة) على (عبد الملك بن مروان) . فأطال النظر اليها ... !!

فقالت : مالك تطيلُ النظر إليّ يا أمير المؤمنين؟

فقال : لا أرى فيك ما يقول (جميل) ... !! فأجابت جواب الواثق من نفسه : «إنه يراني بغير العين التي تراني بها» !!

ولا ننسى ما للنفس الانسانية من أثر في اختلاف النظرة إلى الجمال والقبح ... فالجمال والقبحُ صفتان تنبعان من داخل النفس لا من خارجها، وقد أحسن الشاعر المهجري حين قال:

والذي نفسه بغير جمالٍ لا يرى في الحياة شيئاً جميلا

وقد تتبعتُ أنماط التقابل فوجدتها أربعة :

النمط الأول : تمثل كل كلمة من الكلمتين المتقابلتين نهاية من نهايات الاشياء ، او حالة من الحالات التي لها مقابل دلاليّ غير قابل للتعدد ... ولا للتدريج ؛ كما في : الحرية والعبودية. والذكر والانثى. والعلم والجهل. والشمال والجنوب. والشرق والغرب. وفرق وتحت ...

النمط الثاني : أن يندرج تحت كل لفظة من اللفظتين المتقابلتين مجموعة من الدرجات تساوي ما تحت اللفظة الاخرى من درجات ، كما في الليل والنهار .

النمط الثالث : أن يندرج تحت اللفظة الاولى درجات لا تساوي درجات اللفظة الاخرى ؛ كالحبّ والكراهية .

النمط الرابع : أن يندرج تحت اللفظة من اللفظتين المتقابلتين درجات دلالية متعددة ، في حين لا يندرج تحت الاخرى أية درجات، مثل : الحياة والموت، والتطور والثبات.

فالتطور يعني انتقال الكائن من مرحلة إلى أخرى تتصل بما قبلها وتمهد لما بعدها ، حتى تصل الكائن إلى مرحلة التكامل ... إلا أن الثبات حالة من حالات الاتساق او النظام، في الكون والحياة ....

ويمكن بيان هذه الحالات بالرسوم البيانية الآتية

وتلك الحالات الاربع تتدرج في الصعوبة او تختلف صعوبة ويسراً ....

فالحالة الاولى أيسرها تقابلاً، والحالة الاخيرة أصعبها تقابلاً ...

إننا — في الحالة الاولى — أمام تقابُل حقيقيّ وكامل، دون أن يتشتت الذهن بين درجات كل لفظ من اللفظين المتقابلين .

أما في الحالة الثانية (الليل والنهار) فنحن نستطيع أن ندرك التقابل بسهولة إلى حدّ ما، لوجود درجات دلالية متساوية في اللفظين المتقابلين ... فاوقات النهار مقسمة على اثنتي عشرة درجة، وكذلك أوقات الليل ...

أما في الحالة الثالثة (الحب والكراهية) فنحن نلاقي الصعوبة ليس من تقابل اللفظين، بل من التقابل بين درجات اللفظ الاول ودرجات اللفظ الآخر ...

أما في الحالة الرابعة (الثبات والتطور) فان الصعوبة تكمن في أن احدى اللفظتين المتقابلتين تندرج تحتها درجات، قد تكون محددة تحديداً ما كما في حياة الانسان (في حالة الحياة والموت)، وقد لا تكون محددة كما في التطور (في حالة الثبات والتطور) .

الحالة الأولى

الحرية	الذكر	العلم	الشمال	فوق	بأحد
العبودية	الأنثى	الجهل	الجنوب	تحت	يعطي

الحالة الثانية *

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
النهار	الشروق	البكور	الغدوة	الضحى	الهاجرة	الظهيرة	الرواح	العصر	القصر	الأصيل	العشي	الغروب
الليل	الشفق	الغسق	العتمة	السدفة	الفحمة	الزلة	الزلفة	البهرة	السحر	الفجر	الصبح	الصباح

الحالة الثالثة **

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
الحب	الهوى	العلاقة	الكلف	العشق	الشعف	الشغف	الجوى	التيم	التبل	الوله
الكره	البغض	القلى	الشنآن	المقت	[illegible]	[illegible]				

الحالة الرابعة

الثبات	الموت
التطور	الحياة
↓	↓

(*) ألفاظ الليل والنهار أخذتها من كتاب: فقه اللغة، للثعالبي/٢٩٤

(**) المرجع نفسه/١٦٨ — ١٦٩

المراجع

(أ) المراجع العربية

* الاضداد في اللغة ، للدكتور محمد حسين آل ياسين ،مطبعة المعارف ببغداد ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .
* تحرير التحبير ، لابن أبي الاصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) ، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، ط. القاهرة ١٣٨٣هـ .
* كتاب التشبيهات، لابن أبي عون .
* أبو تمام وقضية التجديد في الشعر، للدكتور عبده بدوي ، نشر مكتبة الشباب بالقاهرة ١٩٧٥م .
* جدلية أبي تمام، للدكتور عبد الكريم اليافي ، منشورات دار الجاحظ، بغداد ١٩٨٠ (الموسوعة الصغيرة ٦٦) .
* خزانة الادب
لابن حجة الحموي
* دلائل الاعجاز، للشيخ عبد القاهر الجرجاني.
تصحيح الشيخ محمد عبده، ط. المنار ١٣٧٢هـ .
* شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، المنسوب لثعلب ط. دار الكتب المصرية (١٣٦٣هـ – ١٩٤٤م) .
* كتاب الصناعتين، لابي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ،تحقيق علي محمد البجاوي وزميله، ط٢. القاهرة (عيسى البابي الحلبي)، بدون تاريخ .
* فقه اللغة وسرّ العربية، للثعالبي (ت ٤٢٩هـ) . تحقيق: مصطفى السقا وزميليه، ط . ثانية – القاهرة ١٣٧٣هـ – ١٩٥٤م .

ب ـ المراجع الأنجليزية

- John Lyons:
  Semantics (Val. one)
  (University press, Cambridge, 1978)
- HAMLYN
  Encyclopedic world Dictionary, (Kondon 1976)
- G. LEECH:
  SEMANTiCS
  (Penguin Books 1974)
- F.R. PALMER:
  SEMANTiCS
  (Cambridge University Press, 1977)

